المحور (1) السيميولوجيا النشأة والمفهوم

السيميولوجيا كعلم قائم بذاته هي علم حديث، بشائره الأولى تعود فقط إلى بدايات القرن العشرين. ولكن هذا لا يعني أنه لم تسبق الإشارة إلى موضوعه ومفاهيمه الأساسية من قبل الأوائل فيرى "امبيرتو إيكو" أن الرواقيين (وأصلهم أجانب على أثينا من بلاد كنعان، فهم لم يتكلموا اللغة اليونانية كلغة أم، لذلك فقد جربوا ازدواجية اللغة) هم أول من تحدث عن العلامة على أساس أنها دال ومدلول، حيث أنهم قالوا أن الاختلاف في أصوات اللغات وحروفها –أي شكلها الخارجي الذي يدعى (الدال) ينبغي أن لا يخدعنا، فوراء هذه الاختلافات الظاهرة بين اللغات البشرية توجد مرجعيات ومعاني (مدلولات) متشابهة ومتقاربة إلى حد كبير، كما أشار إلى هذا المفهوم أفلاطون إذ أكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة هي أداة للتوصيل، كما أن كتب الفلاسفة والبلاغيون والمفسرون العرب والمسلمين بصفة عامة لم تخلو من الإشارة إلى مثل هذا الموضوع فيما سموه بعلم أسرار الحروف ونجد هذا في كتابات ابن سينا والفارابي والغزالي وابن خلدون وغيرهم كثير.

ومن هذا قول "أبي حامد الغزالي": "إن للشيء وجودا في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة، فالكتابة دال على اللفظ، واللفظ دال على المعنى في النفس، والذي في النفس هو مثال الوجود في الأعيان" وبالتالي فقد أشار الغزالي إلى أن العلامة لديها أربع مستويات: الموجود في الأعيان، والموجود في الأذهان، الموجود في الألفاظ، الموجود في الكتابة وهذا التصور المبكر للغزالي أصبح فيما بعد من أهم مفاهيم وأسس عالم السيميولوجيا.

ولكن على الرغم من كل هذه الإشارات في الكتب وبحوث الأوائل إلا أن العلامة كموضوع لعلم قائم بذاته لا يمكن الحديث عنه كما أسلفنا إلا مع بداية القرن 20 إذ بشر به عالم اللسانيات السويسري "فرديناند دوسوسير" (Ferdinand de Soussure) وأسماه (السيميولوجيا) هذا العلم الذي ستكون مهمته "دراسة حياة العلامات داخل الحياة الإجتماعية".

ولقد كانت غاية السيميولوجيا هي تزويد ساحة العلوم والمعارف الإنسانية بمعرفة جديدة تساعد على فهم أفضل للحياة الإنسانية والإجتماعية.

وفي نفس الفترة تقريبا كان الفيلسوف الأمريكي "شارل ساندرس بيرس" (Charles Sanders Pearce) في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي يدعو الناس إلى تبني رؤية جديدة في تناول الشأن الإنساني وما يحيط به، وقد أطلق على هذه الرؤية اسم (السيميوطيقا) وعلى الرغم من اختلاف التسميتين

واختلاف منطلقاتهما، إلا أن السيميولوجيا كما السيميوطيقا هما علم الدلالة. هذا الأخير الذي لم يأخذ شكله التنظيري إلا بفضل (دي سوسير) و(بيسرس)، وقبل أن نسهب في الحديث عن موضوع السيميولوجيا علينا أولا أن نحدد مفهوم كل من السيميولوجيا والسيميوطيقا.

1/ مفهوم السيميولوجيا:

لغويا: تعود اللفظة إلى الاصل اليوناني (فسيميو) مشتقه من كلمة (Sémaino) أي دلالة أما لاحقة (لوجي) فتعني العلم، وبالتالي السيميولوجيا تعني علم الدلالة وإن شئنا تعبيرا آخرا فهو علم العلامات.

إجرائيا: السيميولوجيا علم يدرس العلامات وهو على حد تعبير (دوسوسير): "إذا كان بالإمكان تجديد اللغة كنظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار يمكن مقارنته بأنظمة أخرى: حركات الصم البكم، الطقوس الرمزية صور وآداب السلوك والإشارات الحربية وغيرها، إذن فإنه من الممكن أن نتصور علم يدرس حياة الدلائل في خضم الحياة الاجتماعية وقد يكون هذا العلم فرعا من علم النفس الإجتماعي، وبالتالي فرعا من علم النفس العام.

وبالتالي فالسيميولوجيا هي علم العلامات هدفها دراسة المعنى الخفي لكل نظام علاماتي، فهي تدرس لغة الإنسان والحيوان وغيرها من العلامات غير اللسانية باعتبارها نسق من العلامات مثل علامات المرور وأساليب العرض في واجهة المحلات والخرائط والرسوم البيانية والصور وغيرها.

إذن فهي تدرس الدلائل والعلامات اللغوية وغير اللغوية، وعليه وحسب (دوسوسير) فعلم اللسانيات إلا جزء من هذا العلم العام وعلى اعتبار أن اللسان البشري هو أكثر الأنظمة التعبيرية تعقيدا وانتشارا وهو أكثرها تمثيلا للعملية السيميولوجية فإنه يمكن أن يصبح النموذج العام لكل السيميولوجيات بينما يرى (رولان بارت) أنه من الصعب تصور نظام للصور والأشياء تحتوي على مدلولات خارج إطار اللغة. فالسيميولوجيا في نظره فرع من فروع اللسانيات.

2/ السيميوطيقا:

هي الاخرى ذات أصل يوناني وتعني التشخيص أي تشخيص الأمراض وقد أستعمل هذا المصطلح الفيلسوف الأمريكي "شارل سانرس بيرس" ويعني به علم العلامات والسيموطيقا تبعا لرؤيته هي علم الإشاره وهي تضم جميع العلوم الإنسانية والطبيعية حيث يقول: "ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في هذا الكون كالرياضيات، الأخلاق، علم النفس، علم الاقتصاد إلا أنه نظام سيميائي"

فالسيميوطيقا على حد تعبيره في الأطار المرجعي لأي ممارسة فكرية وقد دعى بيرس إلى نظريه نظرية عامة للعلامات أكد فيها على الوظيفة المنطقية لها بحيث جعل هذا الحقل مرادفا للمنطق حيث يقول: "أن المنطق في معناه العام الفرنكفوني عادة ما يستعمل مصطلح السيميولوجيا للتعريف بعلم الدلالة أو علم العلامات بينما يستعمل الدارسون الأنجلوساكسون مصطلح السيموطيقا للحديث عن علم الدلالة هذا.

3/ السيمياء والسيميائيات: يفضل النقاد والدارسون العرب استخدام مصطلح السيميائيات كتسمية عربية لعلم الدلالة، والسيمياء لغة أصلها وسمة ويقولون السيمة أما إصطلاحا فالسيمياء في أبسط تعريفاتها وأكثرها استخداما هي نظام السمة أو الشبكه من العلامات المتسلسلة وفق قواعد لغوية متفق عليها في بيئة معينة.

والسيميائيات في علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة، والسيميائيات تختص بدراسة هذه الإشارات وعلاقتها في الكون وكذا توزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية.

4/ علم اللسان (Linguistique) تصادف كلمة (Linguistique) بالعربية عدة مصطلحات: علم اللسان الألسنية، علم اللغة غير أن مصطلح علم اللسان أو اللسانيات هو الأنسب إذ يعادل التعبير الفرنسي (Linguistique).

ولقد قد قسم دوسوسير كلمة لغة إلى قسمين [Langage=Parole +Langue/ اللغة= لسان +كلام]

- اللسان: هو مجموع القواعد التي تكون اللغة وهو معجم كبير يضم الكلمات والمفردات والتعابير وقواعد اللغة وهو الشفرة المشتركة بين أفراد الجماعة اللغوية وبهذا فهو نتاج اجتماعي وأداة للإتصال.
- الكلام: هو عمل فردي إرادي خاضع للفرد وابداعه الفكري وهو الاستعمال الشخصي للشفره المشتركة.

وبين هذين الجانبين الاجتماعي والفردي تظهر اللغة.

وبفضل دوسوسير تطورت الدراسات اللغوية من شكلها التقليدي المهتم بقواعد النحو والصرف وجماليات الأسلوب إلى الاهتمام بها على اعتبارها نظاما من الرموز.

إذن علم العلامات انطلق من منبعين أساسيين منطلق لساني لغوي مع عالم اللسانيات دوسوسير الذي قدمه على أساس أنه علم عام يشمل كل نظام من الدلائل التي توظف داخل الحياة الاجتماعية وعليه فإن علم اللسان حسب دوسوسير لا يكون إلا جزء من هذا العلم العام. ذلك ان اللسان البشري هو أكثر الأنظمة التعبيرية تعقيدا وإنتشارا وهو أكثرها تمثيلا للعملية السيميولوجيه ومن هذا المنطلق يمكن أن يصبح النموذج العام لكل السيميولوجيات غير أن رولان بارث (Roland Barthe) يرى أنه "من الصعب تصور نظام من الصور والأشياء تحتوي على مدلولات خارج إطار اللغة" أي أنه من أجل إدراك جوهر المدلول فأن ذلك لا يتم إلا بالاستناد إلى تنظيم هذا المدلول بواسطة اللغة فلا يمكن أن يكون هناك معنى دون ارتباطه بتسميات لغوية ومن هنا فسيميولوجيا في نظره هي فرع من فروع اللسانيات، وفي نظره دائما فإن السيميولوجيا في موضوعها في كل أنظمة الأدلة مهما كانت حدودها وجوهرها صور- أصوات- حركات أشياء... وكل هذه الأنظمة السيميولوجية تمتزج حتما باللغة، إذ لا يمكن دراستها إلا عبر الدليل الألسني فهو الذي يعين دوالها ويبحث في مدلولاتها وهو يقول في هذا الصدد: "استمدت السيميولوجيا هذا العلم الذي يمكن أن نحدده رسميا بإنه علم الدلالات استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات" ويضيف "لا يمكن أن تكون المعرفه السيميولوجية حاليا إلا صورة من المعرفة اللسانية".

فاللون الأزرق كظاهرة طبيعية لم يكن ذا معنى لولا الكلمة التي تدل عليه والمقطع الموسيقي لم يكن ليدرك من طرف الانسان لو لم يكن مرتبطا بمفاهيم في ذهنه متعلقة بطبيعة الصوت ومميزاته المرتبطة بدورها برموز خاصة.

مجالات السيميولوجيا:

يرى بايلون كريستيان وبول فابر أن علم اللسان يبحث في نظام دلائل خاصة هي الدلائل اللفظية عكس السيميولوجيا التي تختص بدراسة انظمة الدلائل غير اللفظية

ويرى بيارجيرو (Pirre Guirand) أن مفهوم كل من الدليل والشفرة توسع إلى أشكال اتصالات اجتماعية وبهذا نجد امتزاج كل ما هو لساني بكل ما هو غير لساني بمعنى آخر فإن بير جيرو يدرج في إطار علم السيميولوجيا كموضوع لدراسة كل من:

- **الدلائل:** ويقسمها الى قسمين:

أ. **دلائل الهوية:** اللباس الشعارات الأسماء لافتات المحلات الأوشام.

ب. **دلائل المجاملة:** وتشتمل نغمة الصوت التحيات وعبارات المجاملة والشتائم وأشكال التحدي والعصيان.

- **الشفرات أو الأوضاع:** وتشتمل البروتوكولات في الاتصالات بين الأفراد والطقوس والألعاب وغيرها.

ونلاحظ هنا في هذا التقسيم إمتزاج كل ما هو لساني بما هو غير لساني (الأسماء) / (اللافتات)، ويمكن تصنيف الأنظمة السيميولوجية إلى:

- **الأنظمة السيميولوجية المناوبة للغة:** تتضمن الكتابة الألفبائية أبجدية البرايل أبجدية الصم والبكم إشارات المورس.

فمثل هذه الأنظمة لا ترمز علاماتها أو دلائلها للفكرة مباشرة فبين هذا النوع من الأنظمة والفكرة تتوسط اللغة الشفوية وبالتالي فهي رموز للاصوات اللغوية المنطوقة.

- **الأنظمة السيميولوجية البديلة عن اللغة:** تتحدد في تلك الدلائل والعلامات التي ترمز إلى الفكرة مباشرة بحيث تنظم علاقة مباشرة بين الرموز أو الوحدات الشكلية لهذا النظام وبين المحتوى أو الفكرة ومثال على ذلك الوحدات الكتابية التمثيلية (Idéogrammes) وهي مجموعه رموز خطية تدل على مفاهيم معينة ترتبط كل منها بكلمة واحدة في النظام اللغوي كاللغة الصينية وخطوط التيفيناغ التي كانت تكتب بها اللغات الأمازيغية في شمال إفريقيا وكذلك نظام الكتابة التصويرية (Pictogrammes) الذي يمثل مجموعة رسوم معقدة تحدد محتوى البلاغات مباشرة دون الاستناد إلى لغتها الشفوية مثال على ذلك رسوم الطاسيلي وغيرها.

- **الأنظمة السيميولوجية المساعدة للغة:** كلغة الايماءات والنغمة الصوتية كما يمكن الاتصال باستعمال دلائل البصرية مثل اشارات المرور الاشارات البحرية والصور أو دلائل صوتية سمعية مثل الموسيقى وصوت الجرس وصفارة الشرطي واصوات الضجيج.

المحور (2) علم العلامات واشكالية المصطلح

إن دي سوسير اللغوي تنبأ بعلم يدرس حياة العلامات والرموز التي توظف داخل الحياة الاجتماعية سواء كانت لغوية أو غير لغوية واختار أن يسميه Sémiologie سيميولوجيا، أما بيوس عالم المنطق فلم يكتف بالتنبؤ، بل قطع أشواطا مديدة في الدراسة العميقة لعلم العلامات فهل رؤية دوسوسير تتفق مع رؤية بيرس فيما يخص هذا العلم ؟ !

وقبل الإجابة عن هذا السؤال الذي لا يزال مثار جدل في أوساط المنظرين والباحثين علينا ذكر أن الأصل اللغوي لكل من مصطلحي Sémiologie و Semioties واحد، وهو يعود إلى اللغة اليونانية من الكلمة Semeiion التي تعني العلامة، ونجد لاحقة logie في مصطلح دوسوسير التي يعود إلى الأصل logos ويعني الخطاب، وبامتداد أكبر يعني العلم وهكذا يصبح تعريف Sémiologie السيميولوجيا على أنها علم العلامة أو العلامات.

وهو ما يوحي إليه مصطلح Sémiotique سيميوطيقا البورسي وبالتالي فكلاهما يتفق من حيث المبدأ على أن العلم الذي يبشران به موضوعه العلامة، لذلك نجد أن الكثير من الدارسين يستعملون كلا المصطلحين على أنهما مصطلحي مترادفين يدلان على مفهوم واحد، فنحن نجد في بعض الكتابات الفرنسية والأوروبية بوجه عام، مصطلحي(Sémiologie) (سيميولوجيا) و(Semioties) (سيميوطيقا) كمصطلحي مترادفين ، كما نجد في بعض الكتابات العربية مصطلحي السيميولوجيا والسيميوطيقا المترجمان– أو لنقل– المنقولون حرفيا إلى اللغة العربية، إلى جانب مصطلحات ذات جذر لغوي عربي كمصطلحات: السيميائيات السيمياء وعلم الدلالة أو الدلالية.

وهناك من يفرق بينهما بأن يفضل مصطلحا دون الآخر فتجد الكثير من الدارسين الأوروبيين يستعملون مصطلح sémiologie اقتداء برائدهم "دوسوسير" de Saussure أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح Semioties تأسيسا برائدهم "بورس" Peirs، فيما يبدو أن الاختلاف ذو طبيعة جغرافية أو أبعد من ذلك انحيازية لثقافة دون الأخرى، في حين يحاول آخرون توظيف المصطلحين بدرجات متفاوتة كما حدث مع "غريماس" Greimas الذي جعل مصطلح Semioties سيميوطيقا يشير إلى الجانب العملي

والتحليلي فيما يخص الدراسات المنجزة في إطار هذا العلم بينما مصطلح sémiologie سيميولوجيا فيشير إلى الإطار النظري غير أن " أمبر تو إيكو" يلح على أن الأمر حسم لصالح السيميوطيقا في جانفي 1969 م بدعوة من جمعية الدولية للسيميوطيقا لاستخدام مصطلح " سيميوطيقا مع عدم إطراح مصطلح السيميولوجيا الذي يغطي كل المفاهيم الممكنة التي يتنازعها المصطلحان، ويقترح حدا للسيميوطيقا مؤداه أنه درس أنظمة العلامات وفق منهج لا يستند ضرورة إلى اللسانيات.

أما " برنار توسان" فيرى على خلاف ما يراه "إيكو" إذ يصرّ على ترادف المصطلحين Semioties وsémiologie و يقول في ذلك: "إن المصطلحين مترادفين... الأول من sémiotique الإنجليزية والثاني من الفرنسية ... سيتعيشان لمدة طويلة إلى أن يوضح تمييز منهجي بين سيميولوجيا وسيميوطيقا: " تمثل كل من سيميوطيقا " أو "سيمي" Sémie بالنسبة للميدان السيميولوجي ما يمثل كل من لسان langue بالنسبة للغة le langage المادة مطبوعة لدى الأمريكيين بتغير دلالي طفيف –بما أنها تعني غالبا في ما وراء الأطلسي السيميولوجيا في شموليتها – و أيضا المادة Sémie مطبوعة بطباع غير مخالف لدى "بويسنس" Eric Buyssens، إذ يبدو أن الأول والثاني يعنيان جوانب المجال السيميولوجي كل المجموعات التي تمثل بالنسبة للسيميولوجي ما تمثله اللغات بالنسبة للساني"

وبالعودة إلى سؤالنا وهو ذات السؤال الذي طرحه "عبد الجليل مرتاض": هل ماعناه سوسير" بالسيميولوجيا هو نفسه ماقصده "بورس" بلفظ السيميوطيقا؟(2)

يجيب مرتاض قائلا: "يكاد الرجلان يتفقان في العموم ويختلفان في الخصوص بالنظر إلى أن "سوسير" كان لسانيا قبل أن يكون فيلسوفا وحتى سيميولوجيا، وبالنظر إلى أن "بورس" كان فيلسوفا قبل أن يكون لسانيا أو حتى سيميوطيقا لكن العموم يظل النقطة المركزية التي يلتقيان فيها، ولو برؤيتين أو منهجين متغايرين في فلسفة التحديد الميداني، تقيدا أو إطلاقا لأن "سوسير " يعدّ كلّ قضية من القضايا اللسانية يجب أن تكون تنضوي تحت السيميولوجيا باعتبارها العلم الأشمل، وبروس يجعل كل المعارف الإنسانية تنضوي تحت السيميوطيقا، أي الإطار المرجعي الشامل الذي يعني كل المواد المختلفة من الدراسة"

وعبد الجليل مرتاض يقصد أن المصطلحين مترادفين ترادفا غير تام ولا متطابق، والسبب يعود إلى أن منطلق "سوسير" كان منطلقا لغويا لسانيا، بينما انطلق بروس من منطلق فلسفي على الرغم من أن كليهما

يتحدث عن علم عام يتناول العلامات كموضوع له، وتجنبا لهذا الإشكال الذي لا يزال مطروحا فيما يخص هذين المصطلحين ذوا الأصل اللاتيني من عدمه

فضلّ الكثير من الباحثين والدارسين العرب توظيف مصطلح "السيميائيات" كمعادل لكلا المصطلحين في إشارة إلى ما يدلان عليه "علم العلامات " . إذ تعود كلمة سيميائيات في أصلها اللغوي إلى سوم و السومة والسيمى و السيمياء و السيمياء، ويقول في ذلك " مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي" في قاموسه المحيط، وفي باب الميم، فصل السين:" السوم، في المبايعة كالسوام بالضم سمت بالسلعة وساومت واستمت بها وعليها غاليت واستمته إياها سألته سومها، والسومة بالضم والسيمة و السيماء و السيمياء بكسرهن العلامة، وسوم الفرس تسويما جعل عليه سيمة، ومن طين مسومة أي عليها أمثال الخواتم أو معلمة ببياض وحمرة، أو بعلامة يعلم أنها ليست حجارة الدنيا".

وهذا ما يذكره إسماعيل بن حماد الجوهري في "الصحاح" والذي أورده " محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي في معجمه " مختار الصحاح ": " السومة : العلامة تجعل على الشاة، وفي الحرب أيضا تقول منه تسوم، وفي الحديث "تسوموا فإن الملائكة تسومت"، والخيل المسومة المرعية والمسومة أيضا المعلمة، وقوله تعالى "مسومين"، قال الأخفش يكونون معلمين وقوله تعالى: "حجارة من طين مسومة" أي عليها أمثال الخواتم، وقال تعالى: "سيماهم في وجوههم" وقد يجئ السيماء والسيمياء ممدودين .

المحور (3) ارهاصات السيميولوجيا في التراث الفكري الغربي

يقول "أمبرتو إيكو":"إن المصطلح الذي ترجمته التقاليد الفلسفية الغربية فيما بعد بعبارة "sigun" و "segno" (علامة) هو باليونانية "سيميون"، و قد ظهرت هذه العبارة باعتبارها مصطلحا تقنيا فلسفيا في القرن الخامس مع "برمنيدس" (Parmenide) و "أبيقراط" (Ippocrate)، و غالبا ما تظهر مرادفا لمصطلح "تكمريون" أي دليل أو سمة أو عرض، ثم جاء "أرسطو" و بالتحديد في كتابه الموسوم "في التأويل" ليقول إن الكلمات هي علامات: "إن الألفاظ دالة (رموز) على المعاني التي في النفس كما أن الحروف التي تكتب هي دالة (رموز) على هذه الألفاظ"... و يحدد أرسطو أن المعاني التي في النفس خلافا للحروف و الكلمات هي أمثلة أو صور للموجودات... و بتحديده هذا الفارق بين الكلمات و المعاني التي في النفس – يقول إيكو– يؤكد أرسطو بطريقة تكاد تكون عفوية، أن الكلمات و الحروف هي بلا شك و قبل كل شيء "سيما" أي علامات للمعاني التي في النفس، و يبدو أن أرسطو يماثل بين مفهوم الرمز ومفهوم العلامة.

وفي كتابه "الخطابة" يتحدث عن المادة الخطابية على أساس أنها تتكون من علامات ويقسمها إلى قسمين: الأول هو العلامات الضرورية ويسميها تقمريون وعرفها بأنها تلك العلامات التي يمكن فيها تأليف قياس منطقي وعلل سبب تسميتها تقمريون بقوله: "إن الناس حين يظنون أن حججهم لا تقبل التفنيد فإنهم يظنون أنهم يوردون تقمريون أي شيئا برهن عليه وثبت" ويتضح من التعريف أن العلامة التي ترد إلى سياق منطقي غير قابل للتفنيد لتعارضه مع المنطق العقلي، فالإنسان المصاب بالحمى مريض وليس العكس، أما النوع الآخر من العلامات فهو العلامات غير الضرورية ولم يضع لها أرسطو اسما، ويمكننا استقراء تعريفها من كلام أرسطو على أنها تلك العلامات التي تحتمل التفنيد، وإن صحت الواقعة، وقد قسمها أرسطو إلى قسمين: علامات علاقتها كعلاقة الجزئي بالكلي كحكمنا بعدالة سقراط باعتباره حكيما، فإنه لا يصح تعميمه على كل الحكماء، وإن صحت عدالته، وهناك علامات علاقتها كعلاقة الكلي بالجزئي إذ تقول رجل مصاب بالحمى لعسر تنفسه فهذا يمكن تفنيده وإن صحت المقولة الواقعية، إذ ليس من الضروري أن يصاب بالحمى من تعرض لعسر التنفس.

ثم يعرج إيكو إلى إسهامات الرواقيين إذ يقول:" يبدو أن الرواقيين كذلك(في ضوء ما يمكن أن نستنتجه من سيميائيتهم المفصلة جدا) لم يربطوا بصفة جلية نظرية اللغة بنظرية العلامات. أما عن اللغة اللفظية فهم يميزون بوضوح بين "العبارة" و "المضمون" و "المرجع".

فبخصوص العبارة فإنهم ميزوا بين الصوت المجرد الذي تصدره الحنجرة و العضلات النطقية و الكلمة ذاتها التي لا تقوم إلا إذا كانت موصولة بمضمون و قابلة للاتصال به. كأن نقول على طريقة سوسير إن العلامة اللغوية هي شيء ذو وجهين. و بالنسبة إلى الرواقيين فإن ما يحدث للهمجيين هو أنهم يتلقون الصوت المادي و لكن من دون أن يتعرفوا عليه باعتباره كلمة. ليس لأنهم لا يملكون ذهنيا فكرة متطابقة ولكن لأنهم لا يعرفون القاعدة التعالقية، وفي هذا الخصوص يذهب الرواقيون أبعد من سابقيهم ويميزون الطبيعة المؤقتة وغير المستقرة و السبب في ذلك، قد يكون راجعا إلى أن جميع المثقفين غير اليونانيين الذين كانوا يشتغلون في اليونان كانوا من أصل فينيقي و كانوا مضطرين إلى التفكير و التعبير في لغة مختلفة عن لغتهم الأم. فكانوا أول من تجاوز تلك المركزية العرقية اللغوية التي حملت حتى أرسطو نفسه على تعريف المقولات المنطقية الكلية من خلال ألفاظ لغة معينة... و الراقيون عندما يتحدثون عن العلامة يبدو أنهم يشيرون إلى شيء واضح بصفة مباشرة يؤدي إلى استنتاج وجود شيء غير واضح مباشرة. ، و في جميع هذه الحالات تظهر العلامات دائما باعتبارها أحداثا مادية من قبيل الدخان ووجود الحليب الذي يدل على الولادة و النور الذي يوحي بالنهار إلى غير ذلك.

بعد ذلك ببضعة قرون وحّد **أوغسطين** في كتاب"De Magistro" بين نظرية العلامات ونظرية اللغة. و تعرف على جنس العلامات التي تمثل العلامات اللغوية من بينها صنفا، مثل الحركات و اللافتات و العلامات الإشارية، و ذلك قبل سوسير بستة عشر قرنا.

و أوغسطين يعترف أنه لا توجد علامة لا تملك أي مدلول لأنه لا يمكن أن نصدر علامات لا نعني بها شيئا، و بما أن مدلول لفظ" لا شيء" لا يبدو أنه حالة من حالات الكون، يستنتج أوغسطين أن هذا اللفظ يعبر عن "المعاني التي في النفس"، أي حالة العقل الذي حتى في صورة عدم اطلاعه على الشيء، يتعرف على الأقل على غيابه. وقد قدّم أوغسطين فهما عميقا لعلم السيميائيات والألسنيات التي تم اكتشافها في الأزمنة الحديثة و طور نظاما معقدا من القراءة الرمزية، فلا يوجد نص ينحصر بمعنى واحد، فهنالك قراءات متعددة للنص الديني، ويري أحمد يوسف أن أوغسطين قدم قائمة سيميائية متلاحمة ومرتكزة على ثنائية (الطبيعة/الثقافة) أحضرت حضورا في سيميائيات التواصل والدلالة على حد سواء.

ونقفز تاريخيا لنصل إلى فلسفة القرن 17م، مع اسم فيلسوف آخر "جان لوك" الذي أعلن أن التجربة هي المصدر الوحيد لكل الأفكار، وأن الأفكار هي منتج يخرج إما عن طريق تأثير الموضوعات الخارجية على الحواس (لا شيء في العقل سوى ما تنقله له الحواس) أو عن طريق الانتباه (فكرة التأمل)، ولقد

حصر "لوك" فلسفة المعرفة الإنسانية في ثلاثة علوم هي الفيزياء والأخلاق والسيميائية، وبهذا يكون أول من أورد إشارة بينة للسيميائية بوصفها فرعا من فروع الفلسفة وأنه أول من قدم هذا المصطلح لكن الدراسة السيميولوجية في عصره لم تخرج عن إطار النظرية العامة للغة وفلسفتها النظرية وهو يعرف مفهومه للسيميائية لا يخرج عن كونه العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل عن طريقها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتها. فالسيميائية عند لوك هي أداة اتصال بوصفها أدوات علاماتية تعتمدها اللغة ويستوعبها الفكر الإنساني، فترجمة هذه العلامات تحدث بين الحواس والفكر... وبالتالي فهو يتحدث عن العلامة والشيء العيان ومن ثم العقل بوصفها عملية مادية تجريبية تخضع لمعيار العقل.

أما ديفيد هيوم ولأنه يرى أن المعرفة لا تكمن في فهم الوجود بل في قدرتها على أن تكون دليلا للحياة العملية يخلص إلى أن إيمان الشخص بسلامة العلاقة بين الدوال والمدلولات هو الذي يمنحها الشرعية التداولية داخل المحيط الاجتماعي، فالعلاقة بين الدال والمدلول بالنسبة إليه ليست اعتباطية أو أولية، وإنما هي علاقة مرجعية اعتادها جمع من الناس ولمدة طويلة ولاسيما في ظاهرة اجتماعية كاللغة.

إذن مفهوم العلامة الذي هو موضوع السيميائيات ليس بالجديد بل هو قديم قدم الفكر والمعرفة الإنسانية، وإن استشهد المنظرين بالفلسفة اليونانية، فهذا لا يعني أنها أول من اهتم بالموضوع. كما أن استشهاد المنظرين الغربيين بأسلافهم لا يعني أن الحضارة الغربية والفكر الغربي هو وحده من اهتم بالعقل وأسس المعرفة ومن ثم العلامة.

المحور (4) ارهاصات السيميولوجيا في التراث الفكري الإسلامي

إن العلامة بما هي سمة وآية هي ركن ركين في عقيدتنا ذلك أن المولى عز وجل دعا أولي الألباب مرارا وتكرارا إلى التدبر في الآيات من حولهم أيا كان تمظهرها، إنه أمر صريح من خالق الإنسان بموجب تشغيل العقل ليتدبر ويحلل ولا يقف عند ظاهر الأشياء ومعانيها الأولية الحرفية وإنما يبحث عن معانيها المستترة أو معاني معانيها ليصل إلى حقيقة الحقائق –وجود الله سبحانه وتربعه المفرد على عرش الألوهية–.

ولعل الدعوة إلى البحث في المعنى الضمني لظاهر العلامات في النص القرآني تكاد لا تخلو منها سورة من السور وما بالك إن كان اسم مقاطع السور في حدّ ذاتها "آية" أي سمة وعلامة حسب ابن منظور [1].

يقول نصر حامد أبو زيد بهذا الشأن:"إن تحول مفردات العالم إلى علامات دالة معناها تحويل العالم إلى كلمات غير ملفوظة، كلمات بالمعنى السيميوطيقي الذي يفضي إلى جعل الكون كله لغة، أي نسقا من العلامات... والقرآن الكريم يجعل كلمات الله لا نهائية لا يمكن لأي مداد أن يستوعب تسجيلها "قل لو كان البحر مداد لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا" (سورة الكهف، الآية 109).

يقول علي مهدي زيتون: شكلت الدلالة التي ينطوي عليها أي نص من النصوص المشكلة الأساسية التي شغلت بال النقد الأدبي منذ أقدم العصور وفي ثقافات الأمم المختلفة وإن كانت المساهمة الغربية هي المساهمة الأقوى في عصرنا الحديث فإنه لا يجوز لنا أن نتجاوز ما جاءت به الثقافة العربية الإسلامية...فقد ارتبطت التجربة الإسلامية في عملية استكناه الدلالة بنزول الوحي، كلام الله وقد احتاج المسلمون إلى معرفة دلالة النص القرآني لكي يكونوا على بينة من أمرهم... ولذلك كان علم التفسير... وهذا العلم مرتكز حسب لغة العصر إلى علمين مستقلين: علم الدلالة "السيمانتيك" حيث يتحكم النظام اللغوي معجما وصرفا ونحوا بتحديد الدلالة الواحدة التي يحتملها النص، والثاني علم العلامات (السيميولوجيا) حيث يحيد النظام اللغوي فيتحكم بتحديد الدلالة لازم الخبر أو الصور البيانية أو البديعية.

وعلم التفسير ليس وحده من بحث عن الدلالة ولكن أيضا علم الكلام، يقول علي مهدي زيتون مجددا: تتوزع نقدنا القديم مدرستان: المدرسة الكلامية الشيعية المعتزلية والمدرسة الكلامية الأشعرية (السنية)، وإذا رأت المدرسة الأولى أن البلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... فقد رأت المدرسة الثانية أن البلاغة هي الكشف عن المعنى القائم في الذهن.

هذا، ويذكر حنون مبارك موضحا ما جاء به الجاحظ في مؤلفه البيان والتبيين أن هذا الأخير قدم تصنيفا للدلالات أو ما يمكن أن نسميه بالأنساق الدالة، وهي تشكل معان عينية دقيقة ومتميزة لكنها قد تكون مجرد لغو وقد اعتبر الجاحظ الإشارة مصاحبة للغة لكنها قد تحلّ محلها وتستعمل في سياقات ومقامات معينة وتنفرد بها. كما أشار الجاحظ أن الإشارة باليد والرأس يتوقف على حسن البيان باللسان، ومعنى ذلك أن دلالة الإشارة متوقفة على دلالة اللغة أي أن الإشارة لا تدل إلا بواسطة اللغة، وقد انتهى إلى اعتبار أن الناطق والجامد سيان في حمل الدلالة[2].

يقول الجاحظ "ومتى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا، وهذا القول شائع في جميع اللغات ومتفق عليه مع فرط الاختلافات.

ويقول إدريس بلمليح : إن الجاحظ يتصور العالم تصورا بيانيا، أي أنه يرى بأن الكون والطبيعة والحيوان والإنسان تعبر عن نفسها بأشكال إشارية مختلفة، ولكن هذه الإشارات هي عامل مشترك بين جميع مظاهر الخلق الإلاهي.

ولقد قسّم الجاحظ أنواع الإشارات إلى خمسة أقسام:" أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد" ومعنى هذا أن الجماد والسكون في الطبيعة والكون تعبر عن نفسها بإشارة من جنسها "متى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا" ومعنى هذا أن النصبة أداة تواصل تحمل رسالة صامتة، ولكنها ليست في حضن الحياة الاجتماعية بل هي أداة تواصل بين الإنسان والقوة الغيبية التي تعتبر سر العالم وحقيقته الخفية، إنها إشارة للدلالة على الله.

وهناك نوع ثان من العلامات أسماها بالإشارة وصنفها إلى قسمين قسم يستعين به الإنسان من أجل إبلاغ المعنى ويشركه مع اللفظ "ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم"، وقسم ثان من العلامات أو الإشارات يستطيع أن ينفصل انفصالا مطلقا عن اللفظ ولكنها قد تساعده وتتصل به فتعد تابعة له في أحيان كثيرة، وهي تعد على أي حال إشارات دالة بحد ذاتها وجد اللفظ أم لم يوجد "فأما

الإشارة فاليد والرأس، وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا ومانعا ورادعا"، مما يشير إلى أن هذا النوع من العلامات له نظامه الخاص غير نظام اللغة عند الجاحظ.

وهناك نوع ثالث من العلامات وهو "العقد" وهو صنف من الحساب يكون بأصابع اليدين، وهو لم يتحدث عن العقد باعتباره وسيلة بيانية بقدر ما تحدث عن منافعه ومنافع الحساب ككل.

أما النوع الرابع فهو الخط وهو وسيلة لا تعني عند الجاحظ الكتابة فقط بل إنها تشمل كل ما اصطنعه الإنسان من وسائل خطية تدرك بواسطة العين في حدود سطح المكان سواء كانت بواسطة القلم أو غيره وسواء كانت مكتوبة أو منقوشة أو محفورة فالجاحظ لم يعتبر الفرق الشكلي بين هذه العلامات جوهريا بما لأنها تعتمد على الشكل المصور الذي يدرك بالعين "وليس بين الرقوم والخطوط فرق فكلها خطوط وكلها كتاب أو في معنى الخط والكتاب".

أما النوع الخامس فهو اللفظ، وهو الكلام المنطوق وهو يعد في نظر الجاحظ أصلا اشتقت منه وسائل البيان الأخرى "وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه وشدة الحاجة إليه، وكيف صار أعمّ نفعا، ولجميع هذه الأشكال أصلا، وصار هو المشتق منه والمحمول عليه"، وبالتالي فهو يرى أن الكلام هو البيان الحقيقي في حين أن غيره من وسائل التواصل شبيه به وتابع له.

ولأن السيميائيات على رأي "شاندلر" لا تعترف بالحرفية بل تهتم بمستوى البلاغة، فإن جهود "عبد القاهر الجرجاني" لها إسهامات كبيرة في هذا المجال، إذ نجده في مؤلفه "دلائل الإعجاز" قدّم مفهومه حول علاقة المعنى باللفظ (وجهي العلامة اللغوية) وهو يقول بأسبقية المعنى على اللفظ الذي يأتي كمجرد تابع وخادم للأول وفي هذا يقول: "... فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها تبعا لترتيب الألفاظ ومكتسبا عنه، لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني، وأن تقع في نفس الإنسان أولا، ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها، بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله، وليت شعري، هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها؟ أو ليست سمات لها وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها؟".

ولعل "نور الدين محمد دنياجي" يقدم شرحا لما قدمناه بلغة محدثة إذ يقول أن الجرجاني رأى الألفاظ أكثر دلالة ووظيفة من باقي الرموز والعلامات غير اللغوية، فهناك صفات خاصة باللفظ اصطلح عليها

وجعلت منه رمزا، له دلالة عامة، وهذه الصفات تنقسم إلى صفات حسية ومعنوية (دال حسي/مدلول معنوي ذهني) ولكن ما يميز اللفظ في كل ذلك أنه يستطيع أن يكسب دلالات جديدة من خلال سياقه في الجملة.

يقول "نور الدين دنياجي" لقد اهتدى الجرجاني من خلال بحثه في البلاغة إلى مفهوم "معنى المعنى" حيث قال "وإذا عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أن نقول المعنى ومعنى المعنى، ونعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر" وبالتالي تحدث الجرجاني عن مستوى سطحي مباشر وآخر ضمني غير مباشر.

والأكيد أن الدارس لإسهامات الجرجاني سيجد أنه يعتبر بحق رائد في مجال الدراسات اللغوية في زمانه بل وفيما يلي زمانه، وهو أمر يشاطره فيه الكثير من علماء الكلام والفلاسفة والمفسرين الذين يحفل التراث العربي والإسلامي بجهودهم العلمية.

المحور (5) البنيوية اللسانية ومفهوم العلامة عند دوسوسير.

عالم اللسانيات السويسري "فردناند دو سوسير"(1857-1913) مات شابا(56سنة) وفي أواخر حياته فقط وضع النظريات اللسانية التي جعلته ذائع الصيت دون تصنيف كتب محددة. تلامذته و مساعدوه الأقربون (شارل بالي و جورج سشهاي) هما اللذان جمعا تسجيلاتهما الخاصة من خلال محاضرات أستاذ جنيف و بعض الوثائق التي عثر عليها بعد وفاته هنا وهناك لتصنيف الكتاب المشهور:" محاضرات في علم اللسان العام" الذي يظهر لأول مرة سنة 1916.و لم تكن الإسهامات الشخصية لسوسير بالهينة خاصة مفاهيم الدال و المدلول وتعارض و تكامل اللغة الكلام، اعتباطية الدليل: إنها من العمل الخاص لسوسير إذ لأول مرة تدرس اللغة من جانبها الشكلي الصوري و في تكامل المادة الصوتية اللسانية بدلالة اللغات، تمّ تجاوز الثنائية الكلاسيكية "الجوهر"، "الشكل" لفائدة نظرية تحيط من قريب بحقائق العلاقة بين شكل التعبير و محتوى التعبير.

لقد تناول سوسير السيميولوجيا من وجهة نظر لغوية، و لذلك فإنه يقيم علاقة مباشرة و وثيقة بين السيميولوجيا و اللغة، حتى أنه يعرف اللغة على هذا الأساس:" اللغة نظام من العلامات يعبّر عن أفكار. وفي المقابل سوسير على إدراك تام بأننا لا نتصل فقط بواسطة اللغة، و لكن كذلك بواسطة إشارات و علامات مختلفة من مثل : الطقوس الرمزية، و أشكال التهذيب أو المجاملة و الإشارات العسكرية. و بناء عليه تنبأ:" بضرورة إيجاد علم مهمته دراسة العلامات في خضم الحياة الاجتماعية ندعوه السيميولوجيا. والسيميولوجيا ستعرفنا مما تنبني العلامات، و ما هي القوانين التي تحكمها. و لأنها غير موجودة بعد فنحن لا يمكننا الحكم عليها بما ستكون، ولكن في المقابل لها الحق في الوجود لأن مكانتها محددة مسبقا. فاللسانيات ليست إلاّ جزء من هذا العلم العام فالقوانين التي ستكشفها السيميولوجيا يمكن أن تطبق على اللسانيات، هذه الأخيرة ستجد نفسها مرتبطة بميدان محدد بدقة في مجموع الوقائع الإنسانية. و مهمة اللسانيات هي التعريف بما يجعل من اللغة نظاما متميزا في مجموع الوقائع السيميولوجية."

- **الثنائيات البنيوية عند دي سوسير:** ينشأ التوجه العلمي عنده(سوسير) في سلسلة من الثنائيات الضدية أو المتقابلات، و يمكن وصف هذه الثنائيات بالضدية، كما يمكن وصفها بالاستبعادية

فهي دائما مرشحة لعملية إلغاء عنصر من عنصري الثنائية، و ذلك للتمكن عبر الاستبعاد من ضبط المادة. وهذه الثنائيات متمثلة فيما يلي:

- **ثنائية لسان/ كلام :**

يبدأ سوسير من منطلق محدد ألا و هو أن اللغة عبارة عن نظام, هذا النظام أسماه سوسير "لسان " (Langue) و كل حالة جزئية عملية أسماها "كلام" (Parole)، فهي تستخدم عناصر معينة من النظام اللغوي ذاك. هذا الفارق، و على سبيل المثال كما يقول جوناثان بيغنل شارحا مثال سوسير: يشبه تماما الفارق بين نظام معين من القواعد و المصطلحات يعرف بالشطرنج وبين خطوة جزئية فردية يحدث أن نستخدمه في لعبة الشطرنج نؤيدها. كل خطوة فردية في لعبة الشطرنج التي نؤديها إنما نختارها من بين كم كبير من الخطوات الممكنة في نظام الشطرنج. وعليه يمكننا أن ندعو نظام خطوات الشطرنج "لغة الشطرنج", بينما كل خطوة جزئية في لعبة شطرنج نؤديها هي مفردة أو "Parole"، و اختيار الخطوة المناسبة من بين مجموع الخطوات الممكنة إنما يجري داخل "لغة الشطرنج".

يمكن تطبيق التمييز نفسه على اللغة. هناك في أيّة لغة كمّ كبير من المفردات ذات المعنى والتي يستطيع المتحدّث أو (الكاتب) استخدامها. ولكي تكون المفردات ذات معنى عليها أن تنسجم مع نظام قواعد هذه اللغة –بالتالي– نظام القواعد الكلي الذي يحكم على إمكانية استخدام المفردة هو Langue (اللسان)، وكل مفردة ممكنة فيه هي مثال Parole (كلام)... دلالات Parole أي المفردات تكون ذات معنى إذا كانت تستخدم على نحو ينسجم مع قواعد اللسان. و بالتالي فسوسير يعني بالكلام نتاج الفرد الذي يتكلم في وقت معين بتوظيفه للسان، بينما يقصد باللسان نظاما تجريديا نظريا بنيويا يتشاطره مجتمع المتكلمين.

- **ثنائية علامة/ مرجع:** فسوسير أعلن أن دراسة اللسانيات لا بد لها أن تمر من خلال دراسة العلامة اللسانية أو الدليل اللساني, هذه العلامة لا تمثل – كما كان يعتقد من قبل– علاقة ربط بين الكلمة و ما تمثله في الواقع (المرجع) أو لنقل هي لا تربط شيئا باسم بل إنها تربط بين دال و مدلول، ولذلك نجد سوسير قد همش مفهوم المرجع في لسانياته.
- **<u>نظرية العلامة</u> أو ثنائية الدال/ المدلول:** عند سوسير تقضي بأن : " العلامة وحدة نفسية ذات وجهين... و هذان العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا و يتطلب احدهما الآخر. و نطلق على

التأليف بين التصور والصورة السمعية الدليل (العلامة) ونقترح الاحتفاظ بكلمة دليل لتعيين المجموع، وتعويض الصورة السمعية والتصورعلى التوالي، بدال ومدلول."

و يشرح حنون مبارك هذه النظرية بقوله: " إن للعلامة: مكونين هما الدال و المدلول، و الدال لا يتشكل من الصوت الواقعي و المادي و الطبيعي، ذلك أن الصورة السمعية هي عبارة عن الانطباع النفسي للصوت. و هي أيضا عبارة عن وسيط. أما المدلول، فإنه ليس ذلك الشيء الواقعي الملموس الذي يعيّنه الدليل، و إنما هو التمثيل الذهني للشيء. فهو مثله مثل الدال ذو طبيعة نفسية.

و إذا كان الدليل (العلامة) هو الجمع بين هذين العنصرين النفسيين، فهو بالضرورة كيان نفسي. و عليه، فإنه يجد موقعه في اللسان لا في الكلام باعتبار اللسان، في المفهوم السوسيري مجموع العلاقات بين الأشكال و القواعد و البصمات المختزنة في أدمغة الذوات المتكلمة. العلاقة بين الدال و المدلول لا تقوم على المشابهة و المناسبة و إلاّ لما تعددت الألسنة، بل تقوم هذه العلاقة على الاعتباطية إذ لا توحي الدوال على مدلولاتها بشكل تلقائي و طبيعي."

و بخصوص الاعتباطية التي تعتبر من أهم ميزات العلامة اللغوية يشرح بيغنل مفهومها : "علامة قط (cat) هي عشوائية، بمعنى أنها ليست ناتجة عن أي تلازم بالصوت أو بالشكل البصري، أو بما تبدو عليه القطط في الواقع. فقدرة العلامات اللغوية لأن تكون ذات معنى إنما تعتمد على وجودها في سياق اجتماعي و على استخدامها في ذلك السياق على نحو مقبول و متوافق عليه.

– **مفهوم قيمة وحدات اللسان:** إن العلامة اللغوية (الدليل اللغوي) لدى سوسير ليست ذات قيمة في ذاتها، إذ أنها تكتسب قيمتها من انتمائها إلى الكل، إلى النظام أي إلى اللسان و هي إن خرجت عن هذا الكل لم تعد تعني شيئا "إن الدليل... يجب أن يفهم داخل تصور عام، هو النظام، و الذي يتضمن مفهوم الكل و العلاقة، حيث لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء، إلاّ في علاقتها الاختلافية مع الكل. فالأجزاء داخل النظام ليس لها معنى في حدّ ذاتها عندما ينظر إليها معزولة. ويشرح بيغنل هذا المعنى بقولة أن سوسير يصف اللغة كنظام لا يتضمن مفردات موجبة في ذاتها، و معنى ذلك أن العلامات لا تستطيع أن تعني من تلقاء ذاتها شيئا معينا، و ليس شيئا آخر. هي بخلاف ذلك، تكتسب معناها المفترض من خلال تناقضها مع ما ليست عليه. "قط" ليست "بط" أو "قرد". و على ذلك فاللغة هي نظام من الاختلافات بين

علامة لغوية ما و بين سائر العلامات الأخرى، و الاختلاف بين العلامة المعينة و سائر العلامات الأخرى هو ما يسمح للفرق في المعنى أن يظهر.

- **ثنائية تزامني/ تعاقبي:** فهي تقوم على مبدأ أن وحدات اللغة أي العلامات اللغوية تأتي بشكل ترتيبي خطي تعاقبي عبر الزمن سواء تعلق الأمر باللغة الشفوية أو المكتوبة فلكي نكون كلمة علينا أن نعقب الحروف الواحدة تلوى الأخرى، و لكي نكون جملة علينا أن نعقب كلمات، و هكذا دواليك.. و الأمر كله يستغرق زمنا معينا:" اللسانيات البنيوية تطبق أيضا مبادئها في دراسة التعاقبية أو التراتبية la syntaxe، التي تصف العلاقة بين العناصر المتتالية في الرسالة الاتصالية، فلقد بيّن سوسير أن عناصر اللغة لا يمكن لها الوجود إلاّ من خلال سلسلة تحدث عبر الزمن.

و يمكن شرح الأمر وتبسيطه بالقول:" في أي نص لغوي, كتابة أو كلاما، فإن علامة ما يجب أن تأتي قبل التي تليها، و بطريقة تغطي فسحة من الزمن... و حين تنتشر العلامات زمنيا في ترتيب ما، أو في نسق مكاني، فإن الترتيب الذي ترد فيه هو من الأهمية بمكان.

فالمعنى في جملة " الكلب عض الرجل"، إذا قرأنا الكلمات مرتبة الواحدة بعد الأخرى، ينتشر من اليمين إلى اليسار. هذه الحركة الأفقية تدعى جانب الترتيب من الجملة، أما إذا عكسنا اتجاه القراءة فسيصبح الترتيب " الرجل عض الكلب"، و يصبح المعنى مغايرا تماما."

- **ثنائية التركيبية/ الاستبدالية:** هناك ما يشبه جداول عمودية من العلامات تتقاطع مع الخط الأفقي للجملة، و بطريقة تتيح للجملة أن تستعمل واحدة من العلامات الموجودة في كل جدول عمودي. نستطيع مثلا – باستعمال المثال المذكور أعلاه – استبدال " الكلب" "بقط" أو "نمر", و استبدال "عض" " بلحس" أو " رفس" أو "مضغ" وعليه فإن جانبا مهما من مسألة كيف تصنع اللغة المعنى يجب العثور عليه في حقيقة إن كل علامة لغوية هي محاطة ببراديغمات من العلامات المترابطة غير الظاهرة، إن شرح معنى واحدة من الكلمات الفردية Parole سيتضمن بالتأكيد الانتباه للطريقة التي يؤثر فيها ترتيب الكلمات على المعنى، و على الطريقة التي شكلت بها العلامات التي لم تنتق من باراديغم معيّن معنى العلامات التي جرى انتقاؤها. و كمبدأ عام، كل علامة موجودة إنما اكتسبت معناها بفضل العلامات الأخرى التي لم يجر انتقاؤها و استبعدت من النص."

المحور (6) سيميوطيقا شارل ساندرس بيرس

شارل ساندرس بيرس فيلسوف و عالم منطق أمريكي ولد سنة 1839 و توفي في شهر أفريل من عام 1914 وكان آنذاك في الخامسة و السبعين من عمره، وقد فقدت بوفاته أمريكا علما من أكثر الأعلام الفلسفية أصالة و إبداعا بعد حياة مليئة بالتقلبات و الإخفاقات التي طالت كل شيء في حياته. فلقد عاش أغلب فترات حياته فقيرا معدما محروما من أي وضع اعتباري أو مادي، تاركا تراثا ضخما في شتى مجالات المعرفة.*... سنوات بعد ذلك سيتذكر الناس بورس من جديد، و سيحتفى بتراثه الفلسفي و المنطقي و السيميائي، و ستقوم الجامعة هافرد بشراء مخطوطاته. و ستقوم مجموعة من الأساتذة بجمعها في ثماني مجلدات تحت عنوان Collected Papers التي ظهرت لأول مرة ما بين 1931 و1935 تحت إشراف هارتشون ويس.

قبل الخوض في سيميوطيقا بيرس يجب التنويه إلى مدى تعقيدها، و هذا راجع كما يعبر عن ذلك سعيد بن كراد و هو يسرد مسيرة حياة الرجل بقوله:" ... فالملاحظ أنه طيلة حياته لم يكتب سوى كتابين، نشر أحدهما في حياته، و لم ير الآخر النور إلاّ بعد مماته، فهو لم يكن يعير اهتماما لهذا الأمر، و كان يكتب في ميادين متعددة و متضاربة و متباعدة عن بعضها البعض، الشيء الذي يجعل من تحديد خيط ضابط لأفكاره أمرا صعبا. و الذين اطلعوا على بعض كتاباته يدركون ذلك جيدا. و مضمون أعماله التي جمعت بعد موته في مجلدات تحت عنوان Collected Papers يوضح ذلك.

فلقد عمل مجموعة من الباحثين لفترة طويلة من أجل التمييز بين الحقول المتعددة التي تخوض فيها هذه الكتابات... فلقد كان قليل الاهتمام بتنظيم أفكاره.

إن سيميوطيقا بيرس كسيميولوجيا سوسير هي علم البحث عن كنه العلامة، ولكن المنطلقات الفكرية و العلمية متباينة، فسوسير كما رأينا كان منطلقه لساني, بينما بيرس كان منطلقه فلسفي و منطقي، و لهذا التباين الأثر البالغ على المفاهيم و المقاربات النظرية التي جاء بها كلا الرجلين، مع العلم أن بيرس تمكن من بناء سيميوطيقا بناء محكما على عكس سوسير الذي عاجلته المنية قبل أن يسهب في التنظير للعلم الجديد الذي سبق و أن تنبأ به.

يقول سعيد بن كراد " إن السيميائيات في تصور بيرس لا يمكن أن تكون نموذجا تحليليا جاهزا قادرا عن الإجابة عن كل الأسئلة التي تطرحها الوقائع. إنها على النقيض من ذلك فعلإنها تصور متكامل للعالم. ذلك أن الإمساك بهذا العالم باعتباره سلسلة لا متناهية من الأنساق السيميائية، أي باعتباره علامات، يشير إلى استحالة فصل العلامة عن الواقع، ما دام هذا الواقع نفسه ينظر إليه باعتباره نسيجا من العلامات، أي سلسلة من الواقع نفسه ينظر إليه باعتباره نسيجا من العلامات، أي سلسلة من الإحالات التي تضمحل لحظة استيعابها في الفعل الإنساني.

و لهذا فإن السيميائيات، في تصور بيرس... تجعل من الإنسان علامة و تجعل منه صانعا للعلامة و تقدمه كضحية لها في نفس الآن. فالإنسان هو المنتج للسلوك الفردي و هو الذي يحول هذا السلوك إلى قاعدة جماعية... و هي من جهة ثانية، تدرك العالم باعتباره كلية (ليس هناك فصل بين الواقع و الفكر)... لهذا فإن دائرة العالمات تتسع لتشمل كل الموجودات، بل إن الواقع ليس كذلك إلاّ في حدود مثوله أمامنا كعلامة، فلا يمكن تصور إدراك حقيقي يجعل من الموجودات كيانات مفصولة عن الذات التي تدركها. و على حدّ تعبير بورس:" فإذا قلتم بأن هذا الموضوع موجود في استقلال عن كوني أفكر فيه، فإن كلامكم لا معنى له."

إن كل شيء على وفق بيرس يدرك بصفته علامة ويشتغل كعلامة ويدل باعتباره علامة فالتجربة الإنسانية كلها بدءا من صرخة الرضيع إلى تأمل الفيلسوف ليست سوى سلسلة من العلامات المترابطة والمتراكبة .إنها تدرك كتداخل لمستويات ثلاثة. أول وثاني وثالث ،وكل عنصر يحدد كون له قوانينه ولكنه لا يدرك إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى .فلا وجود للعنصر خارج الوحدة التي تجمع هذه العناصر.

ولكن ماذا تعني العلامة في نظر بورس؟ سؤال للإجابة عنه يجب المرور أولا بما يسمى نظرية المقولات الثلاث التي تعتبر الأساس النظري لمجمل سيميوطيقا بيرس "... إن استيعاب التصوّر البيرسي للعلامة يمر عبر استيعاب تصوره لنظرية المقولات ، إذ لا يشكل التعريف الذي يقدمه بيرس للعلامة سوى الوجه المرئي لقاعدة فلسفية ترى في التجربة الإنسانية كلها كيانا منظما من خلال مقولات ثلاث هي الأصل والمنطلق في إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها.

-مفهوم المقولات الثلاث:

إن المقولات الثلاث البيرسية تعيد صياغة الوجود والموجودات بشكل فلسفي بحيث تغدو صالحة لإنتاج المعرفة بعدما كانت مجرد موجودات جوفاء " إن مبدأ الثلاثية هو المبدأ الأساس الذي سيشكل عمق السيرورة المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني ، سواء تعلق الأمر بالمقولات أو تعلق بالبناء الداخلي للعلامة ، أو تعلق بما سيسميه لاحقا التوزيع الثلاثي للعلامة ففي كل هذه الحالات تنطلق الثلاثية من النوعية (أول) إلى الفعل (ثان) وإلى القانون (ثالث) أي من الإحساس إلى الوجود إلى التوسط وهي السيرورة المؤدية إلى تحديد إدراك عقلي للكون يستند إلى المفاهيم لا إلى المعطيات الحسية المعزولة."

يشرح حنون مبارك المقولة الأولى بقوله :" إن الأول هو الوجود في ذاته ... إن الأول هو الوعي المباشر ، وتشتمل هذه المقولة الأولى على كيفيات الظواهر مثل أحمر، ومّر، ومتعب وصلب ومؤسف ...والأولية هي مقولة الإحساس والكيفية ".

إن الأولانية أو الأولية في تصور بورس كما يشرحها بتبسيط أكبر بنكراد تحيل إلى وجود الشيء في ذاته خارج أي سياق. و بعبارة أخرى، فإن الأولانية تحيل إلى سلسلة من الأحاسيس و النوعيات المنظور إليها في ذاتها...الأحاسيس كالألم و الخوف و الفرح والحزن، و إلى النوعيات كالأحمر و الأخضر و الخشن و اللين. و على هذا الأساس تتحدد الأولانية كمقولة للوجود الاحتمالي، و لا يمكن أن تشتغل إلا باعتبارها ما يحيل على الاحتمال و الإمكان... إن الأولانية تتميز بالعمومية، و لهذا فإن الإبهام و الغموض و الالتباس سمات خاصة بها...إنها الأحاسيس خارج أي تجسد، و هي النوعيات في انفصال عن الوقائع التي تخبر عنها و تمنحها هوية....إن الأولانية هي الإحساس قبل أن تكون هناك ذات تحس، و هي النوعيات قبل أن يكون هناك شيء تتجسد من خلاله هذه النوعيات...إنها الاحتمال فحسب، و الاحتمال نمط في الوجود لا يرتبط بحالة و لا يعود إلى واقعة بعينها، بل يشير إلى الانفتاح الدائم على أشكال للتحقق أو على خيبات لا تنتهي.

باختصار إن المقولة الأولانية في مفهوم بورس هي كل الأشياء في هذا الوجود المتحررة من الواقع و من الذوات، إنها مجرد احتمالات لا غير قد تتحقق و قد تبقى مجرد احتمال إلى ما لا نهاية. و لكن إذا تحققت هنا سنكون أمام المقولة الثانية ، أمام " عالم الموضوعات ..عالم الوقائع (الأفعال و الأحداث..)

المتعلق بهذه الموضوعات... هكذا يبدو أن المقولة الثانية تتضمن الوقائع المجسدة، ذلك أن الحدث..يقع هنا و الآن. و تتعلق الوقائع بالذوات التي هي جواهر مادية.. إن الثانية هي مقولة التجربة و الصراع و الواقعة."

" إننا مع الثانيانية ننتقل من الإمكان إلى التحقق، أي نلج دائرة الوجود. و بعبارة أخرى إننا نقوم بصب المعطيات الموصوفة في الأولانية داخل وقائع محددة من خلال نقلها من طابعها الاحتمالي إلى طابعها المتحقق... لذا، فإنه إذا كانت هذه المقولة الأولانية هي مقولة البداية والجدة، أي أنها أول داخل السلسلة، فإن الثانيانية تحد من حرية هذه السلسلة. ذلك أن تحديد الثاني معناه تقليص للإمكان و تحويلها إلى تحقق عيني...إن الثانيانية هي مقولة الواقعي والفردي، إنها مقولة التجربة والواقعة والوجود... إنها مقولة الهنا والآن، وجود الشيء الذي حدث في زمان و مكان معينين. إنها مقولة الفعل و ردّ الفعل".(3) و يرى بورس أن لا وجود لأول و ثاني دون ثالث في هذا الكون، لذلك فالأولانية مجرد احتمال، و الثانيانية تحقق هذا الاحتمال في الواقع، و لا يمكن أن يتحقق الأمر إلاّ إذا كانت هناك ثالثانية تربط بين الاثنين..." يطلق بورس على موضوعات هذا العالم الضروريات، و يشمل كل ما يمكننا معرفته عندما نفكر منطقيا، و يتحطم إلى حد ما في الواقع، قانون في الأحداث المستقبلية... إن الثالث هو ما يربط بين الأول و الأخير المطلقين و ينسج بينهما علاقة، إنه التمثيل التوسطي بين الأول والثاني...إن الثالثانية هي مقولة الفكر و القانون."

إذن يمكننا القول أن المقولة البورسية الثالثة هي القوانين و الأفكار المجردة التي تتحكم في نتائج الوقائع و الاحتمالات على حدّ سواء و تدخل الكل ضمن نطاق التجربة الإنسانية المجردة.

إن نظرية المقولات الثلاث " تعدّ الأساس الصلب الذي على أساسه ستبنى السيميائيات باعتبارها نظرية في المعرفة و منطقا في الإدراك. فالعلامة ليست تعيينا لأشياء فحسب، وليست إنتاجا لمعنى فحسب، إنها في المقام الأول الأداة الرئيسة لتنظيم التجربة الواقعية و مثولها أمامنا باعتبارها تجربة رمزية.

-مفهوم العلامة عند بورس:

على خلاف ما طرحه عالم اللسانيات السويسري سوسير عن العلامة التي حددها بكونها ثنائية الأوجه وذلك بناء على نظريته اللسانية البنيوية وما فيها من علاقات قاعدية ثنائية، قدم بورس مفهومه للعلامة ذو الثلاثة أوجه، منطلقا هو الآخر من مبدأ الثلاثية الذي بنيت عليها فلسفته إجمالا و نظرية

المقولات تحديدا " إن مبدأ الثلاثية، الذي يعد منطلق كل تمثيل، هو ذاته ما يشكل بناء العلامة. إن العلامة ستبنى هي الأخرى باعتبارها وحدة ثلاثية المبنى شأنها في ذلك شأن نظرية المقولات، بل إن نمط وجودها و مضمونها و موقعها داخل الممارسة الإنسانية هو التجلي المباشر للمقولات باعتبارها هي الأساس الذي يشكل الإدراك الإنساني: إدراك الذات لعالمها الخارجي ووعيها لمعطياته

وعليه يقدم بيرس نموذجا ثلاثيا، يتألف من:

1-الماثول: الشكل الذي تتخذه العلامة و هو ليس بالضرورة ماديا، مع أنه يعتبر عادة كذلك.و يسميه بعض المنظرين " حامل العلامة".

2- المؤول (تأويل العلامة): و هو المعنى الذي تحدثه العلامة.

3-الموضوع: و هي شيء يتخطى وجوده العلامة التي يرجع إليها (المرجع إليه).

وفي شرح اوجه العلامة عند بيرس يقول بن كراد: "سيارة" هذه الكلمة هي علامة تتكون من ماثول هو سلسلة الأصوات / س ي ا ر ة/ ، و من موضوع و هو ما تحيل عليه السيارة باعتباره في ذاته قاعدة للإحالة، و تحتوي ثالثا على ما يبرر العلاقة القائمة بين المتوالية الصوتية و هذا الموضوع.

ولنفترض الآن أننا نطقنا بهذه الكلمة أمام شخص لم يسبق له أن سمع بالكلمة و لا رأى السيارة فماذا سيحدث؟ بالتأكيد لن يدرك هذا الرجل سوى سلسلة من الأصوات... إلاّ أنني قد أخطو خطوة إضافية و آخذ بيده و أريه سيارة فعلية، و في هذه الحالة سيقارن بين السيارة والكلمة، وسيدرك أن تلك الأصوات تعني هذا الشيء المفرد المجسد أمامه باعتباره واقعة فعلية و وجودا عينيا. و هنا أكون قد ربطت بين متوالية صوتية و موضوع بعينه، أي قمت بصب معطيات شعورية أو نوعية في تجربة قابلة للمعاينة... هذا الربط عرضي و زائل، في حين أن الإدراك يحتاج إلى التجريد، أي ما يجعل من التجربة قابلة للنقل. فقد يعود هذا الرجل إلى مسكنه وينسى الكلمة والشيء معا، فلكي يمتلك السيارة في ذاكرته، عليه أن يتوفر على قانون.

والقانون هو أن نجعل من الربط بين السيارة ككلمة و السيارة كموضوع ربطا دائما، بحيث قد تنتفي السيارة كوجود عيني، إلاّ أنها تظل مع ذلك حاضرة كنموذج إدراكي دائم في ذهنه. و هذا النموذج هو

التعريف الذي يمكن أن نعطيه للسيارة باعتبارها آلة تتحرك بأربعة عجلات ومحرك و تسير بالبنزين، و تستعمل للتنقل. إن هذا النموذج، الذي يقوم بالتوسط بين كيانين هو ما يطلق عليه بيرس المؤول."

إذن العلامة عند بيرس ثلاثية الأوجه، واصطلاحيا نتبنى تسميتها على التوالي: الماثول الموضوع، المؤول، كما اختار كلّ من حنون مبارك و سعيد بن كراد ترجمتها.

الماثول هو الوجه الأول، أي وكما يدل عليه اسمه- يمثل شيئا ما، و هو الصورة الصوتية أو المرئية إذا كان الأمر يتعلق بكلمة معينة، و لأنه أول، فهو عماد العلامة. إن الماثول، على هذا الأساس هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء آخر. إنه لا يقوم إلا بالتمثيل، فهو لا يعرفنا على الشيء و لا يزيدنا معرفة به. ذلك أن موضوع العلامة هو ما يجعل منها شيئا قابلا للتعرف... و بعبارة أخرى، فإن الماثول هو ما يمكّن الموضوع من الخروج من دائرة الوجود الطبيعي، إلى ما يشكل الوجود الثاني في حياة الأشياء.

الموضوع: هو ما يقوم الماثول بتمثيله، سواء كان هذا الشيء الممثل واقعيا، أو متخيلا أو قابلا للتخيل أو لا يمكن تخيله على الإطلاق.

ويمكننا القول بعبارة أخرى أن الموضوع بالمفهوم البورسي هو القاعدة المعرفية التي ننطلق منها لصياغة العلامة، وهي لا تتعدى كونها علامة هي الأخرى، فكما نعلم كل ما في الوجود علامة وفق نظرة بورس.

وها هو دانيال شاندلر يشرح مفهوم الموضوع عند بورس بعمل مقارنة بسيطة بين أوجه العلامة البورسية و تلك السوسيرية "الفرق بين النموذج السوسيري و النموذج البورسي هو أن هذا الأخير (باعتباره ثلاثيا و ليس ثنائيا) يحوي مصطلحا ثالثا يتخطّى وجوده حدود الإشارة و أعني بذلك الموجودة (الموضوع أو المرجع). و كما رأينا، ليس المدلول عند سوسير مُرجعا إليه خارجيا، إنما ممثلية عقلية مجردة. و مع أنّ الموجودة (الموضوع) عند بورس لا تشير فقط إلى الأشياء المحسوسة (كذلك الأمر بالنسبة إلى مدلول سوسير) بل يمكن أن تكون مفاهيم مجرّدة و كيانات خيالية، فنموذجه يفسح مكانا للمحسوس و الواقع خارج الإشارة، و هذا ما لا نجده مباشرة في نموذج سوسير.... الموجودة (الموضوع) عند بورس...أساسية بالنسبة إلى معنى العلامة: يتضمن" المعنى" في نموذج بورس الإرجاع أو بشكل أوسع التمثيل والتفسير".

و هو يعني بذلك أن الموضوع أو المرجع عند بورس جزء من المعنى و بالتالي جزء من المدلول بالمفهوم السوسيري مع الأخذ بعين الاعتبار أن حدود حيّزه –إن جاز التعبير– أكبر تتعدى إلى ما هو خارج العلامة.

و لكن، من جهة أخرى لا يمكن للموضوع أن يشتغل إلاّ إذا نظر إليه باعتباره علامة... فالباث و المتلقي يجب أن يمتلكا معرفة سابقة عن موضوع ما لكي يكون هناك حوار. وهذه المعرفة السابقة تتحدد من خلال سلسلة من العلامات السابقة.

و بالتالي نخلص إلى أن الموضوع عند بورس لا يخرج عن كونه علامة أخرى خارج العلامة قد يكون أمرا محسوسا أو مجردا و لكن معرفته مشروطة بين المرسل و المتلقي ضمن السياق الثقافي المشترك.

المؤول: يعتبر المؤول ثالث عنصر داخل نسيج السيميوز، و هو ما يحددها في نهاية المطاف. إنه عنصر التوسط الإلزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة. فلا يمكن الحديث عن العلامة إلاّ من خلال وجود المؤول باعتباره العنصر الذي يجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا. إنه هو الذي يحدد للعلامة صحتها و يضعها للتداول كواقعة إبلاغية.

و في مقارنة إيضاحية بين مفهوم المؤول عند بورس ومفهوم المدلول عند سوسير أمكن لشاندلر تقريب مفهوم المؤول البورسي المعقد، يقول :"...اعتبار أن المدلول يقوم بدور الدال أمر مألوف عند كلّ من يستخدم قاموسا وينطلق من تعريف معين في القاموس ليبحث عن معنى كلمة وردت في التعريف. و يعني تشديد بورس على صناعة المعنى أنه يرفض المساواة بين المعنى و المضمون. لا تتضمن (العلامة) معنى, إنما يظهر هذا الأخير من تفسير (العلامة) .

(وهو يقصد هنا أن العلامة في ذاتها لا تحمل أي معنى، إنما يتولد المعنى بعد أن نشرع في عملية تفسير العلامة). من الملاحظ أن بورس يشير إلى التأويل (المعنى الذي تتخذه العلامة) و ليس إلى المفسِر بشكل مباشر، علما أن للمفسِّر حضورا ضمنيا...لكن المفهوم البورسي يقوم على سيرورة تفسير ذات ديناميكية عالية)...ينبثق من مفهوم تأويل العلامة عند بورس مفهوم الفكر الحواري، و هو مفهوم لا نجده في نموذج سوسير. يقول بورس" كل تفكير يتخذ شكلا حواريا. إن ذاتك في حالة معينة تحتكم إلى ذاتك العميقة لتعضدها اعتمادا على نظريات نفسية تقول بأن التفكير الداخلي اجتماعيا في أساسه.

سيرورة الدلالة أو السيميوز:

إن مفهوم المؤول يحتل موقعا هاما في سيميائيات بورس، فالتأويل ينبثق من حركة الإحالات التي تولدها العلامة و هي سيرورة لا متناهية من الإحالات (من حيث المبدأ) يطلق عليها بيرس اسم السيميوز التي هي سيرورة في الوجود و الاشتغال و إنتاج الدلالات. فالعالم لا يشكل أي شيء قبل أن يتسرب إلى رحم السيميوز على شكل علامات من جميع الأحجام والمواد... فلا غرابة أن يجعل بيرس من العالم أجمع بكائناته و أشيائه نسيجا لا ينتهي من العلامات.

فكل ما في الكون خاضع أو يجب أن يخضع لسيميوطيقية تنقله من بعده المادي إلى ما يشكل جوهره العلامي، أي بؤرة للدلالات المتنوعة.

و بتعبير أوضح، السيميوز هو سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، و تستدعي، من أجل بناء نظامها الداخلي، ثلاثة عناصر هي ما يكوّن العلامة و يضمن استمرارها في الوجود والاشتغال: عنصر أول يقوم بالتمثيل (الماثول) و آخر يشكل موضوع التمثيل موضوع) وثالث وسيط بين الاثنين يشتغل كفعل للفهم، هو ما يقود إلى الامتلاك الفكري "للتجربة الإنسانية في مظهرها الصافي"

تصنيف العلامات عند بورس:

قدّم بورس على خلاف دوسوسير تصنيفا لما يعتبره علامات في سيميوطيقا، و هو بذلك حاول أن يكون أكثر دقة و تحديدا في تقديم مفهومه للعلامة و أنواعها، و في هذا يقول شاندلر: كان بورس مدمنا على الصّنافة، و قدّم عدة تصنيفات (كان أوّلها عام1867) و على الرغم من أنّ هذا التصنيف يعتبر فرزا لمختلف أنماط الإشارات (العلامات) من المفيد أكثر اعتباره يبيّن صيغ العلاقات بين حامل الإشارة و مدلولها (العلاقات بين أوجه العلامة) و تقوم هذه العلاقات وفق نموذج بورس، بين الماثول والموضوع أو المؤول المتعلقين به.

واشهر هذه التصنيفات التصنيف الثلاثي الذي تبنّته فيما بعد المدرسة البنيوية الفرنسية:

الإيقونة: المبدأ الذي يتحكم بالعلامات الإيقونية هو الشبه. الإيقونة يمثل موضوعها بوساطة الشبه القائم بين حامل العلامة (الماثول) و مدلولها (المؤول)، و بالتالي فإن أي شبه يقوم بين العلامة و موضوعها

يكون كافيا من حيث المبدأ لإقامة علاقة إيقونية. و تضم الأمثلة التي يضربها بيرس عن الإيقونة الصورة الفوتوغرافية و الصورة الشخصية غير ان الأيقونة ليست بالضرورة مرئية.

المؤشر: كل علامة ترتبط بموضوعها ارتباطا سببيا تعتبر مؤشرا مع العلم أن هذا الارتباط عادة ما يكون ماديا أو بالمجاورة. و يدخل بورس ضمن هذا النوع من العلامات: الأعراض المرضية التي تشير إلى وجود علّة ما عند المريض، و الآثار التي نراها على الرمال و التي تدل على مرور الناس من هذا الدرب، أو الدلّ بالإصبع السبابة، و ترنّح مشية البحار التي تدل على مهنته، و القرع على الباب الذي يشير إلى وجود شخص في الخرج.

الرمز: بالنسبة إلى بورس الرمز هو علامة ترجع إلى الموضوع الذي تدل عليه بناء على قانون، هو عادة مجموعة أفكار عامة، يعمل على تفسير الرمز على أنه يرجع إلى ذلك الموضوع... إنّ ما يجعله رمز، هو بشكل أساسي استعماله و فهمه على أنه كذلك. فالرمز هو علامة اصطلاحية.

إن العلاقة التي تربط بين العلامة وموضوعها هي علاقة اتفاقية عرفية و غير معللة، وبورس يرى أن هذا النوع من العلامات هو الأكثر تجريدا، و يطلق عليها في بعض الأحيان تسمية "العادات" أو "القوانين" . و عليه فالعلامات اللغوية هي رموز عند بورس سواء كانت أصواتا شفهية أو أشكال كتابية.

المحور (7) أهم الاتجاهات السيميولوجية

على عكس الاتجاه البيرسي، عرف الاتجاه السوسسوري بحكم انتشار اللسانيات انتشارا واسعا. وقد نشأ عنه اتجاهان متعارضان في تأويلهما لدورة الكلام السوسيرية. ويقوم التأويل الأول، وهو تأويل كل من بريطو ومونان ومارتيني وبويسنس، على أن وظيفة اللسان الأساسية هي التواصل، وان هذا التواصل مشروط بالقصدية. وفي تعارض مع هذا التأويل، يسجل أنصار سيميولوجيا الدلالة وفي مقدمتهم بارت أن اللغة لا تستنفد كل إمكانيات التواصل فنحن نتواصل ، توفرت القصدية أم لم تتوفر. بكل الأشياء الطبيعية والثقافية سواء كانت اعتباطية أم غير اعتباطية. لكن هذه الأشياء الدالة ما كان لها أن تحصل دون توسط اللغة. إذ أن تفكيك ترميزية الأشياء يتم بالضرورة بواسطة اللغة باعتبارها النسق الذي يقطّع وينتج المعنى. ولهذا السبب كانت المعرفة السيميولوجية قائمة على المعرفة اللسانية. وبين هذين الاتجاهين يتوسط اتجاه سيميولوجيا الثقافة كما سيأتي:

سيميولوجـيا التواصــل : يستند التواصل حسب رومان جاكبسون R.Jakobson إلى ستة عناصر أساسية وهي: المرسل والمرسل إليه والرسالة والقناة والمرجع واللغة. وللتوضيح أكثر نقول: يرسل المرسل رسالة إلى المرسل إليه حيث تتضمن هذه الرسالة موضوعا أو مرجعا معينا، وتكتب هذه الرسالة بلغة يفهمها كل من المرسل والمتلقي. ولكل رسالة قناة حافظة كالظرف بالنسبة للرسالة الورقية، والأسلاك الموصلة بالنسبة للهاتف والكهرباء، والأنابيب بالنسبة للماء، واللغة بالنسبة لمعاني النص الإبداعي... هذا، و تهدف سميولوجيا التواصل عبر علاماتها وأماراتها وإشاراتها إلى الإبلاغ والتأثير على الغير عن وعي أو غير وعي. وبتعبير آخر تستعمل السيميولوجيا مجموعة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتنبيه الآخر والتأثير عليه عن طريق إرسال رسالة وتبليغها إياه .ومن هنا **فالعلامة تتكون من ثلاثة عناصر: الدال والمدلول والوظيفة القصدية** . كما أن التواصل نوعان: تواصل إبلاغي لساني لفظي (اللغة) وتواصل إبلاغي غير لساني (علامات المرور مثلا).

ويمثل هذه السيميولوجيا كل من بريطو Prieto ومونان Mounin وبويسنس Buyssens الذين يعتبرون العلامة مجرد أداة تواصلية تؤدي وظيفة التبليغ وتحمل قصدا تواصليا. وهذا القصد التواصلي حاضر في الأنساق اللغوية وغير اللغوية. كما أن الوظيفة الأولية للغة هي التأثير على المخاطب من خلال ثنائية

الأوامر والنواهي، ولكن هذا التأثير قد يكون مقصودا وقد لا يكون مقصودا. و يستخدم في ذلك مجموعة من الأمارات والمعينات Indications التي يمكن تقسيمها إلى ثلاث:

1- **الأمارات العفوية** وهي وقائع ذات قصد مغاير للإشارة تحمل إبلاغا عفويا وطبيعيا مثال : لون السماء الذي يشير بالنسبة لصياد السمك إلى حالة البحر يوم غد.
2- **والأمارات العفوية المغلوطة** التي تريد أن تخفي الدلالات التواصلية للغة كأن يستعمل متكلم ما لكنة لغوية ينتحل من خلالها شخصية أجنبية ليوهمنا بأنه غريب عن البلد.3
3- **والأمارات القصدية** التي تهدف إلى تبليغ إرسالية مثل : علامات المرور، وتسمى هذه الأمارات القصدية أيضا بالعلامات. وكل خطاب لغوي وغير لغوي يتجاوز الدلالة إلى الإبلاغ والقصدية الوظيفية، يمكننا إدراجه ضمن سيميولوجيا التواصل .

- **سيميولوجـيا الدلالــة:** يعتبر رولان بارت خير من يمثل هذا الاتجاه، لأن البحث السيميولوجي لديه هو دراسة الأنظمة والأنسقة الدالة. فجميع الوقائع والأشكال الرمزية والأنظمة اللغوية تدل. فهناك من يدل باللغة وهناك من يدل بدون اللغة المعهودة، بيد أن لها لغة خاصة. ومادامت الأنساق والوقائع كلها دالة، فلا عيب من تطبيق المقاييس اللسانية على الوقائع غير اللفظية أي الأنظمة السيميوطيقية غير اللسانية لبناء الطرح الدلالي. وقد انتقد بارت في كتابه " عناصر السيميولوجيا" الأطروحة السوسسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في السيميولوجيا مبينا بأن " اللسانيات ليست فرعا ، ولو كان مميزا، من علم العلامات، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات".

وبالتالي، تجاوز رولان بارت تصور الوظيفيين الذين ربطوا بين العلامات والمقصدية، وأكد وجود أنساق غير لفظية حيث التواصل غير إرادي، ولكن البعد الدلالي موجود بدرجة كبيرة. وتعتبر اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل هذه الأنساق والأشياء غير اللفظية دالة. حيث "إن كل المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة، ذلك أن " الأشياء" تحمل دلالات. غير أنه ما كان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالة لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة. فهي، إذاً تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة. وهذا مادفع ببارت إلى أن يرى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة، فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة".

أما عناصر سيمياء الدلالة لدى بارت فقد حددها في كتابه" عناصر السيميولوجيا" ، وهي مستقاة على شكل ثنائيات من الألسنية البنيوية وهي: اللغة والكلام، والدال والمدلول، والمركب والنظام، والتقرير والإيحاء(الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية). وهكذا حاول رولان بارت التسلح باللسانيات لمقاربة الظواهر السيميولوجية كأنظمة الموضة والأساطير والإشهار... الخ ويعني هذا أن رولان بارت عندما يدرس الموضة مثلا يطبق عليها المقاربة اللسانية تفكيكا وتركيبا من خلال استقراء معاني الموضة ودلالات الأزياء وتعيين وحداتها الدالة ومقصدياتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية. ونفس الشيء في قراءته للطبخ والصور الفوتوغرافية والإشهار واللوحات البصرية.

ولتبسيط سيميولوجيا الدلالة نقول: إن أزياء الموضة وحدات دالة إذ يمكن أثناء دراسة الألوان والأشكال لسانيا أن نبحث عن دلالاتها الاجتماعية والطبقية والنفسية. كما ينبغي البحث أثناء تحليلنا للنصوص الشعرية عن دلالات الرموز والأساطير ومعاني البحور الشعرية الموظفة ودلالات تشغيل معجم التصوف أو الطبيعة أو أي معجم آخر.

3- سيميائية الثقافة

وقد تولد عن الاتجاهين الرئيسيين السابقي الذكر – أي سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة – اتجاه ثالث، وهو اتجاه سيميولوجيا الثقافة الذي وقف موقف الوسط من كليهما.

فغير بعيد عن هذين الاتجاهين ظهر اتجاه سيميولوجيا الثقافة المستفيد من الفلسفة الماركسية ومن فلسفة الأشكال الرمزية لكاسيرر خاصة في كل من روسيا وإيطاليا، وتنطلق سيميولوجيا الثقافة من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية. والثقافة عبارة عن إسناد وظيفة للأشياء الطبيعية وتسميتها وتذكرها. وهي بذلك تكون وسيلة لتنظيم الإخبار في المجتمع الإنساني. إن حصيلة عمل الإنسان تكمن في سلوكيات لها معان والسلوكيات ليست سوى إنجاز لبرامج معينة. وعليه فالثقافة برامج وتعليمات تتحكم في سلوك الإنسان. والسلوك الإنساني تواصل لأن التواصل لا يتحقق إلاّ بالاعتماد على بنية سلوكية إنسانية. إن إدراك الإنسان للعالم إدراك تبرمجه الثقافة بواسطة أنساقها اللفظية وغير اللفظية التي تؤطر عمل الإنسان وممارسته الاجتماعية، وكل نسق من هذه الأنساق ليس نسقا تواصليا فحسب، وإنما هو نسق منمذج للعالم. وهكذا يصبح كل نسق ثقافي نسقا تواصليا بما أن الموضوع الثقافي قد صار المحتوى الممكن لأية عملية تواصلية. ويعني ذلك أن قوانين التواصل هي قوانين الثقافة."

ومن جهته يضيف " عبد الواحد المرابط": " يرتبط اتجاه سيميائية الثقافة بمجموعة من العلماء والباحثين السوفيات المعروفين باسم جماعة " موسكو- تارتو" والإيطاليين خصوصا منهم "روسي لاندي" Rossi Landi ، وهذا الاتجاه يرى في الظاهرة الثقافية موضوعا تواصليا ونسقا دلاليا يتضمن عدة أنساق(لغات طبيعية واصطناعية وفنونا وديانات وطقوسا وغير ذلك). وترى مجموعة " موسكو- تارتو" أن كل الأنساق السيميائية تقوم على أساس الوحدة والتعالق حيث يسند كل منها الآخر. فليس لأحد من هذه الأنساق آلية تجعله قادرا وحده على القيام بوظيفته. وقد كانت نقطة انطلاق هذه الجماعة هي التمييز بين منظورين للثقافة: الثقافة من منظور داخلي، أي من منظورها الذاتي ، وهو المنظور الذي يتمثله حامل هذه الثقافة ومستعملها، ثم الثقافة من منظور خارجي، أي من منظور النظام العلمي الذي يصفها.

كما ترى جماعة تارتو أن المفهوم الأساس لعلم السيمياء هو النص، ومفهوم النص لا يعني لديهم الرسالة اللغوية فقط، وإنما كل ما يحمل معنا متكاملا(احتفال، عمل فني، قطعة موسيقية..) على أن ليس كل رسالة باللغة الطبيعية نصا ثقافيا، وليس كل نص ثقافي نصا في اللغة الطبيعية، لأن النص الثقافي ينبغي أن يكون رسالة تحمل معنى متكاملا وتؤدي وظيفة تشاركها فيها نصوص أخرى، وتنتظم داخل نظام الثقافة ككل، هذا بغض النظر عما إذا كانت هذه الرسالة نصا لغويا أو لوحة تشكيلية أو مقطوعة موسيقية أو بناية أو غير ذلك. كم أن مفهوم النصوص يتحدد بصفته المجموع الكلي للنصوص الممكنة، أي تلك التي يعدها نظام ثقافي ما نصوصا ثقافية، وإلا فهي عبارة عن لا-نصوص.

وعليه تشتغل الثقافة باعتبارها كلا سيميائيا وتجميعا لمستويات ونظم فرعية، غير أنه يمكن في مرحلة تاريخية معينة أن يهيمن نظاما دالا معينا ويفرض قيمه ومبادئه البنائية التي تتغلغل إلى البنى الأخرى، وإلى الثقافة في مجموعها، وهنا يمكن الحديث عن ثقافة موجهة نحو الكتابي وحضارة نحو الكلام والمشافهة وأخرى نحو الصورة.

يتبين لنا من خلال هذا العرض الوجيز أن السيميولوجيا باعتبارها علما للأنظمة اللغوية وغير اللغوية قسمان: سيميولوجيا تهدف إلى الإبلاغ والتواصل من خلال ربط الدليل بالمدلول والوظيفة القصدية. أما سيميولوجيا الدلالة فتربط الدليل بالمدلول أو المعنى. وبعبارة أخرى إن سيميولوجيا الدلالة ثنائية العناصر(ترتكز العلامة على دليل و مدلول أو دلالة)، بينما سيميولوجيا التواصل ثلاثية العناصر(نبني العلامة على دليل و مدلول ووظيفة قصدية). وإذا كان السيميوطيقيون النصيون يبحثون

عن الدلالة والمعنى داخل النص الأدبي والفني، فإن علماء سيميوطيقا الثقافة يبحثون عن المقصديات والوظائف المباشرة وغير المباشرة.

قائمة بأهم المراجع:

- أمبرتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة.** تر: أحمد السمعي، ط1، بيروت:المنطقة العربية للترجمة توزيع مركز دراسات الوحدة العربية،2005
- الجرجاني عبد القادر، **دلائل الإعجاز في علم المعاني تحقيق ياسين الأيوبي.** لبنان: شركة أبناء الشريف الأنصاري، 2011.
- برنار توسان، **ماهي السيميولوجيا.** تر: محمد نظيف، ط1، إفريقيا الشرق، 1994.
- بلمليح إدريس، **الرؤية البيانية عند الجاحظ.** ط1، المغرب: دار الثقافة، 1984
- بارت رولان، **مبادئ في علم الأدلة.** تر: محمد بكري، الدار البيضاء: كلية الأدب، 1986.
- فاخوري عادل، **علم الدلالة عند العرب دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة.** ط1، بيروت: دار الطليعة، 1985.
- شاندلر دانيال، **أسس السيميائية.** تر: طلال وهبة، ط1، لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2008.